الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

يستلفت نظر الباحث عند دراسته للاوضاع السياسية فى الخليج العربى ابان الغزو البرتغالى فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه القوى العربية والاسلامية مما كان عاملا رئيسيا ساعد البرتغاليين فى فرض سيطرتهم على المنطقة .

ولم يقتصر التفكك السياسى على القوى المحلية بل تعداه الى القوى الاسلامية الكبرى التى انشغلت اما فى تدعيم قواعد حكمها او فى صراعات قامت فيما بينها مما مكن البرتغاليين من استغلال تلك الظروف لتأكيد سيطرتهم على بحار الشرق وتطبيق سياستهم الاحتكارية التى كان لها اثر كبير فى اضعاف المقومات الاقتصادية وانهاء العصر الذهبى للملاحة والتجارة التى تمتع بها المسلمون فى القرون التى سبقت الزحف البرتغالى الى بحار الهند [1] .

تفكك القوى العربية والإسلامية ساعد البرتغاليين في فرض سيطرتهم على المنطقة

للدكتور
جمال زكريا قاسم
استاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب
جامعة عين شمس ـ القاهرة

ولعل ما تجدر الاشارة اليه ان الفترة التى واكبت الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى كانت تعد فترة تحول بالغة الاهمية بالنسبة للقوى الاسلامية التى تصدت للزعامة فى ذلك الحين فقد شهدت تلك الفترة أفول بعض القوى الاسلامية وظهور بعضها الآخر وفي السنوات الأخيرة بين

القرن الخامس عشر او بشكل اكثر تحديدا فى عام ١٤٩٢ سقطت آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس وفى خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر اخذ الاتراك العثمانيون يتحولون بفتوحاتهم على حساب الشعوب المسيحية فى البلقان وأوروبا ويتجهون الى التوسع على حساب الشعوب الاسلامية فى الشرق وفى تلك الفترة ايضا تأسست الدولة الصفوية فى ايران وانهارت دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام وبعض احزاء من الجزيرة العربية كما ظهرت الدولة المغولية فى الهند .

وعلى الرغم من تلك التحولات السريعة التى تعرض لها العالم الاسلامى الا ان النظرة الثانية تكشف لنا عدم تضامن تلك القوى فى مواجهة البرتغاليين وانما على العكس من ذلك انشغلت القوى الاسلامية فى صراعات مذهبية او توسعية فيما بينها وبين بعضها الاخر او فيما بينها وبين القوى الاخرى المجاورة لها مما اضعف من تماسكها ففى الهند كان الصراع محتدما بين القوى الاسلامية والهندوكية وشغل هذا الصراع تلك القوى عن التطلع لمواجهة الاطماع الاجنبية التى كانت تحيق بسواحل الهند الغربية على اثر اكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح ووصولهم الى كاليكوت حتى ان سلطنة كجرات الاسلامية لم تجد سوى الاستنجاد بدولة المماليك فى مصر رغم بعد المسافة فيما بينهما للتغلب على الغزو البرتغالى لسواحلها وفى تلك السواحل تعرض الاسطول المملوكى لهزيمة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩ التى تعد نهاية العصر الذهبى للملاحة العربية والاسلامية فى المحيط الهندى [٢] ومما يسترعى الانتباه حدوث تلك الهزيمة خلال الفترة التى كان فيها الشاه اسماعيل الصفوى (١٤٩٩ ـ ١٥٢٤) يعمل على توطيد دعائم دولته التى اتخذت من تبريز عاصمة لها . ومما لا شك فيه ان تأسيس الدولة الصفوية فى ايران قد استنفد جانبا كبيرا من الجهد الذى اضيف اليه جهد آخر تمثل فى الصراع المذهبى الذى احتدم بين الدولتين الاسلاميتين الكبيرتين ، الدولة الصفوية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب الشيعى والدولة العثمانية التى اعتبرت نفسها حامية للمذهب السنى واستمرت المناوشات قائمة بين هاتين الدولتين حتى تفجر الموقف فى معركة جالديران ١٥١٤ التى انصرف العثمانيون بعدها للقضاء على دولة المماليك فى مصر والشام حتى اجهزوا عليها فى عام ١٥١٧ .

ويمكننا ان نستخلص من ذلك أنه لم تكد تمر سنوات قليلة على بدء وصول البرتغاليين الى سواحل الهند ثم الى سواحل الخليج العربى حتى قامت الحروب بين الدول الاسلامية الثلاث المماليك والصفويين والعثمانيين واسفرت نتائج تلك

الحروب عن تغييرات جذرية بعيدة المدى على الاوضاع السياسية فى المشرق الاسلامى كان لها اثرها على الموقف العسكرى والسياسى للبرتغاليين من ناحية والقوى الاسلامية من ناحية اخرى . ومما لا شك فيه ان تلك الاوضاع التى اشرنا اليها كانت مواتية لتوطيد السيطرة البرتغالية على بحار الشرق ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة ان البرتغاليين لم يواجهوا تحالفا بين القوى الاسلامية الكبرى ولم تكن هناك سوى دولة المماليك التى تصدت لهم عسكريا خلال السنوات الاولى من وصولهم الى الهند وكان اصطدامهم اكثر وضوحا مع القوى المحلية الاسلامية سواء كان ذلك فى سواحل شرق افريقيا او فى سواحل الهند او فى سواحل الخليج والجزيرة العربية [٣] على ان تلك القوى المحلية كانت قد وصلت هى الاخرى الى درجة كبيرة من الاعياء والتفكك فضلا عن احتدام الخلافات القبلية والمنافسات الاسرية فيما بينها وكانت تلك الظروف جميعها فى صالح البرتغاليين سواء ما كان يتعلق بها من اوضاع القوى الاسلامية الكبرى او القوى المحلية اذ استغل البرتغاليون تلك الاوضاع لصالحهم ففى سواحل شرق افريقيا حالف البرتغاليون شيخ ماليندە ضد منافسة حاكم ممبسه وفى منطقة الخليج العربى حالف البرتغاليون ملوك هرمز ضد منافسيهم شيوخ بنى جبر الذين نجحوا فى السيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وبعض المقاطعات العمانية وازداد الامر سوءا حين عمد البرتغاليون الى ارسال سفارات الى ايران للتباحث مع الشاه اسماعيل الصفوى فى شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التى بدأت تتطلع للسيادة على سواحل الخليج العربى . ولعل مما يسترعى الانتباه ان الخلافات العصبية والمذهبية كانت اشد خطورة بالنسبة للمفاهيم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت بين الاطماع الاجنبية التى بدأت تتربص بالقوى الاسلامية خلال تلك الفترة حيث اضحت تلك الخلافات اقصر الطرق للمخططات الاستعمارية فى المنطقة ، وليست الخطورة فى استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل ان الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المتنافسة الى الاستعانة بالقوى الاستعمارية لتصفية حساباتها فيما بينها ولعل فى استقراء الاحداث التاريخية ما يفيد القوى العربية والاسلامية المتصارعة فى منطقة الخليج العربى فى وقتنا الحاضر [٤] . بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية الاولى بالسيطرة على مملكة هرمز باعتبارها تتحكم فى مدخل الخليج العربى وتشكل فى الوقت نفسه اكبر تنظيم سياسى واقتصادى عرفته المنطقة فى السنوات التى سبقت الغزو البرتغالى . وقد انيطت العمليات العسكرية البرتغالية فى منطقة الخليج

العربى الى افونسودى البوكيرك [٥] الذى نشأ فى وقت كان الصراع فيه يدور على اشده بين المسيحيين فى شبه جزيرة ايبيريا فاشربت فى قلبه الرغبة العنيفة فى الانتقام من المسلمين وقد بدأ البوكيرك حياته العسكرية فى المغرب ثم انتقل الى ميدان الصراع الصليبى فى بحار الشرق واليه ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التى وصفت بالحصون التى لا تقهر فى كل من هرمز ومسقط والبحرين وغيرها ولا تزال كثير من تلك الحصون باقية حتى يومنا هذا تشهد على ما كان عليه البرتغاليون من تسلط وغلظة .

وقد يكون من المفيد ان نتوقف عند مملكة هرمز باعتبارها كما سبق ان اشرنا - اقوى التنظيمات السياسية والاقتصادية التى ظهرت فى الخليج العربى حتى مجىء البرتغاليين فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر . وتجدر الاشارة الى ان هناك خلافات بين الباحثين بالنسبة لهوية تلك المملكة فالكتاب الايرانيون يغالون فى اصباغ الهوية القومية على هرمز فيصفونها بانها كانت مملكة فارسية على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية لهرمز باعتبار ان اللغة العربية كانت هى اللغة السائدة واغلب سكانها من العرب وانتماء ملوكها الى اصول عربية فضلا عن اعتناقهم المذهب السنى وذلك على خلاف المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى ايران . اما المصنفون المسلمون القدامى كالاصطخرى والمقدسى والادريسى وغيرهم فقد اكدوا على ان هرمز كانت مملكة عالمية فسكانها من العرب والفرس والهنود والزنوج والبلوش والترك والاوروبيين الى الحد الذى كانت تظهر فيه كمنطقة تجمع عالمية وان احتفظت فى نفس الوقت بطابعها العربى والاسلامي اذ انه على الرغم من انها كانت تجمع الكثير من الاجناس الا ان اللغة العربية كانت هى لغة التعامل كما كان اغلب سكانها من العرب اذ ان طبيعة النشاط البحرى والتجارى الذى كانت تتميز به مملكة هرمز قد ساعد على بروز الكثير من البحارة والتجار العرب خاصة من اليمن وعمان وموانىء الخليج العربى [٦] .

وينبغى ان نميز هنا بين مملكة هرمز القديمة التى كانت قائمة فى البر الاصلى وبين مملكة هرمز الاكثر حداثة التى ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى . فمملكة هرمز بمفهومها القديم كانت تشمل اجزاء داخلية من الساحل الايرانى وتتفق معظم المصادر على ظهور تلك المملكة منذ اواخر القرن العاشر الميلادى حيث تعاقب عليها الكثير من الامراء والملوك حتى اذا وصلنا الى الامير بهاء الدين وهو الخامس عشر من سلالة ملوك هرمز نجد ان عهده قد صادف الهجوم الكبير الذى تعرضت له مملكة هرمز فى عام ١٠٣١ اى فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى من قبل فرسان

التتار وكان الهجوم عنيفا لدرجة ان الامير وشعبه هجروا هرمز الواقعة على الساحل الشرقى من الخليج وانتقلوا الى جزيرة قشم ومنها الى جزيرة جرون المواجهة لمدينتهم القديمة والتى اطلقوا عليها هرمز تيمنا بها واصبحت جزيرة هرمز منذ ذلك التاريخ عاصمة لاكبر تنظيم سياسى وتجارى عرفته منطقة الخليج العربى (٧) ولعل مما يثير الانتباه ان تلك الجزيرة الصغيرة الجرداء قد ارتفع مستوى معيشة سكانها بعد فترة وجيزة من انتقال النشاط التجارى اليها ويرجع ذلك الى اتساع الحركة التجارية وكثرة الصادرات والواردات كما ان النشاط التجارى لم يقتصر على بلدان العالم الاسلامى فحسب وانما امتد الى القارة الاوروبية حيث اصبحت هرمز حلقة اتصال تجارى بين الشرق والغرب كما لعب تجارها دورا بارزا فى نقل بضائع الشرق الى اوروبا . ولم تقتصر هرمز على اهميتها التجارية فحسب وانما امتد نفوذها على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة كما امتدت سيطرتها على سواحل فارس الجنوبية وطبقا لما يذكره الرحالة البرتغالى بدرو تكسيرا فإن هرمز نجحت نجاحا باهرا خلال المائتى عام التالية بعد تأسيسها ١٣٠١/ ١٥٠٠ حتى انها سادت على كثير من مقاطعات الخليج والجزيرة العربية واستمرت قائمة حتى أخضعها البرتغاليون لسيطرتهم منذ عام ١٥٠٧ وظلت خاضعة للبرتغاليين حتى نجح الشاه عباس الكبير بالتعاون مع الانجليز فى إجلاء البرتغاليين عن هرمز فى عام ١٦٢٢ وامر بتدميرها وانتقل النشاط التجارى الى ميناء بندر عباس (٨) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ان مملكة هرمز كانت من بين الممالك الاسلامية الهامة التى زارها الرحالة ابن بطوطه وذلك خلال رحلته الاولى التى قام بها فى الربع الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٢٥ ـ ١٣٤٩ وقد خلف لنا وصفا ممتعا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء فذكر انها مرسى السند وفارس وخراسان والهند وابدى إعجابه باسواق المدينة المجهزة تجهيزا حسنا كما وصف سلطانها قطب الدين وهو الحاكم الرابع فى هرمز الجديدة بالكرم والاخلاق النبيلة غير انه وجده مشغولا ومتهيئا للحرب ضد اخيه نظام الدين (٩) ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم هم الذين استرعى انتباهم اهمية هرمز وانما جذبت الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الاوروبيين من بينهم الرحالة لودفيج فارثمان Wartheman الذى زارها قبل مجىء البرتغاليين بسنوات قليلة فى عام ١٥٠٣ وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها ومما ذكره بصدد ذلك انه كان يوجد بمينائها ما يزيد

احيانا على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلاد العالم راسية على ارصفتها البحرية كما كان يقيم فيها بصفة دائمة اكثر من اربعمائة تاجر وان معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والاحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل [١٠] .

اما الرحالة البرتغالى دورات باربوسا الذى كان مصاحبا لفاسكودى جاما فى رحلته الى الهند فقد وصف الجزيرة بالجمال وذكر ان بيوت اثريائها كانت اشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع اثاث واردة من الهند والصين وان الازدهار التجارى الذى تمتعت به كان يعود فى الدرجة الاولى الى موقعها الاستراتيجي فى المضايق المؤدية الى الخليج وقد اضيف الى ثرائها التجارى الدخل الذى كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التى كانت تفرضها على الموانىء التابعة لها ومن الطبيعى ان هذا الدخل اخذ يتحول لصالح البرتغاليين بعد سيطرتهم عليها وعلى ذلك فانه من الخطأ المبالغة فى ان البرتغاليين حولوا تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح اذ ظلت الطرق البحرية القديمة مستخدمة فى تجارة الشرق وان كانت تحت السيطرة البرتغالية ويدل على ذلك كثرة الرسوم الجمركية التى كان يجبيها البرتغاليون لحسابهم [١١] تقديرنا ان السبب فى الازدهار التجارى الذى تمتعت به هرمز يرجع الى ان دائرة النشاط التجارى قد اتسعت مع بداية العصور الحديثة فلم تعد مقتصرة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق افريقيا الى قلب العالم الاسلامي بل اصبحت مملكة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة حين دخلت المدن الايطالية ذلك الميدان واصبحت هرمز مثلا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الاوروبى وتردد اسمها فى اشعار جون ميلتون واعتبرت خاتمة العالم من يمتلكها يمتلك العالم باسره [١٢] على انه رغم العظمة التى بلغتها الا انها لم تستطع ان تحمى نفسها والمناطق التابعة لها من الغزو البرتغالى ولذلك سقطت فى ايدى الغزاة البرتغاليين فى عام ١٥٠٧ [١٣] ويمكن تفسير خضوعها السريع للبرتغاليين بأن اهلها كانوا يشتغلون بالتجارة والملاحة ولم تكن لهم دراية بفنون القتال يضاف الى ذلك التفكك الذى كانت تعانى منه المملكة بسبب تفاقم الصراع بين افراد الاسرة المالكة كما ان الدولة الصفوية كانت منشغلة فى توطيد دعائم حكمها ، وحتى بعد ان ثبتت دعائم الحكم اتجهت الى التوسع فى الشمال ولم تلعب دورا يذكر فى صد الغزو البرتغالى وظلت بعيدة عن الاشتباكات العسكرية مع البرتغاليين بل انها اتجهت فى بعض الاحيان الى اقامة علاقات تحالف معهم ولم تتحول الدولة الصفوية الى قوة مناهضة

الحرب المذهبية بين الدول الإسلامية
في القرن السادس عشر
مكنت الإستعمار الأجنبي من التسلل للمشرق

للبرتغاليين الا منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادى (١٤) وكان الامتداد الكبير الذى بلغته مملكة هرمز يشكل فى نفس الوقت عاملا من عوامل انهيارها ولذلك كان من الطبيعى ان يؤدى تفسخ تلك المملكة الى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية التى اتجهت الى منازعتها السيادة ومن بين تلك القوى شيوخ بنى جبر الذين بدأ نجمهم يصعد فى اواسط نجد منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (٨٧٢ هـ - ١٤٦٧ م) وتمكنوا من انتزاع البحرين والاحساء والقطيف وبعض الاقاليم العمانية من مملكة هرمز مستغلين فى ذلك الصراع الاسرى الذى كان قائما بين سيف الدين واخيه فخر الدين تورانشاه بل ان ذلك الصراع اعطى بنى جبر فرصة للتدخل فى المملكة ذاتها واصبح شيخهم يلقب بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس اهل نجد (١٥) .

نستخلص من ذلك انه عند مجىء البرتغاليين الى الخليج العربى كانت هناك قوتان متنافستان مملكة هرمز من ناحية وشيوخ الجبور من ناحية اخرى (١٦) وكان من الطبيعى ان يتجه البرتغاليون الى تعميق هذا التنافس تحقيقا لمصالحهم ويمكننا ان نضيف الى هذا التنافس بين هاتين القوتين تفكك الاوضاع السياسة فى كثير من المقاطعات العمانية ففى الوقت الذى خضعت فيه مسقط وخورفكان وقلهات وصور وسورات وغيرها من مقاطعات الساحل لمملكة هرمز (١٧) كانت المقاطعات الداخلية فى ايدى الملوك النبهانيين الذين كانوا يتعرضون دوما لثورات الإباضيين المتحمسين لبعث الامامة الإباضية (١٨) .

وفى عام ١٤٨٣ عقدت الامامة لعمر بن خطاب الخروصى ولكن لم يلبث ان

اطاح به النبهانيون بعد سنة واحدة قضاها فى الحكم ولعل ذلك مما جعله يستعين ببنى جبر فى الاحساء الذين نجحوا فى اعادة تنصيبه اماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وكان من الطبيعى ان تصبح عمان الداخل فى دائرة نفوذ بنى جبر وظهر ذلك واضحا حين تجدد القتال بين الاباضيين والنبهانيين على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذى خلف الامام الخروصى بعد ان نجح بفضل استعانته بشيوخ الجبور فى قتل الملك النبهانى واخذ البيعة بالامامة ١٥٠٠ ـ ١٥٣٥ (١٩) .

ولعل مما يؤكد تفوق نفوذ بنى جبر فى عمان ان البرتغاليين حينما دخلوا الخليج اول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى إن افونسودى البوكيرك ذكر ان عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى وصفه بملك الجبور وذكر ان معظم جزيرة العرب تدين له بالولاء وعلى الرغم من ان ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة الا انه يحمل ايضا كثيرا من الحقائق فالامر الذى لا شك فيه ان الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية فى الجزيرة العربية بالاضافة الى الاحساء والقطيف والبحرين وعمان الداخلية والساحلية ويؤكد ذلك ما اشار اليه المؤرخ البرتغالى باروس Barrotz من ان الجبور كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وانهم كانوا يشكلون خطرا عليها (٢٠) ويفهم من ذلك ان الصراع بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد فى الخليج حين وصل البرتغاليون الى سواحله وعلى الرغم من ان الجبور كانوا هم القوة الصاعدة الا ان هرمز كانت هى القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج وكان عليها ان تتكفل بحمايته من الغزو البرتغالى المفاجىء رغم التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه (٢١) ولعل مما يلفت النظر ان الدولة الصفوية الناشئة فى ايران حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز فى هذه المهمة وتلك الملاحظة لها اهميتها الخاصة لانها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية او للدول التى سبقتها فى فارس وذلك خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين المعاصرين الذين تمادوا فى تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد الى حد ادعائهم ان نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبار تبعية هرمز للسيادة الفارسية (٢٢) .

بدأ البوكيرك عملياته العسكرية الاولى فى الخليج بمحاولة الاستيلاء على مسقط وكان ذلك على عهد الامام محمد بن اسماعيل فى عام ١٥٠٧ وقد حاول حاكم مسقط تفادى الخراب والدمار الذى الحقه البرتغاليون بقريات بعقد الصلح معهم ولكن ملك هرمز رفض قبول ذلك الصلح وبادر

بارسال قوة عسكرية الى مسقط التى كانت تابعة له بيد ان البرتغاليين نجحوا فى تحقيق الانتصار واصدر البوكيرك امره بحرق المدينة واغتصابها انتقاما لنقد الصلح الذى عقد معها ولم تنته العمليات العسكرية الا بعد تعهد شيوخ المدينة بتسليم جزية من الذهب قدرت بعشرة آلاف زرافين (٢٣) .

وحين انتهت العمليات العسكرية فى مسقط انتقل البوكيرك الى هرمز التى كان يحكمها سيف الدين وهو فتى لم يتجاوز عمره اثنى عشر عاما وكان يرأس مجلس البلاد خوجة عطار وهو شيخ محنك ، وقد رأى البوكيرك ان السيطرة على هرمز ستؤدى الى احكام سيطرته على الخليج العربى لأهميتها الاستراتيجية (٢٤) وقد استطاع ان يحقق نصرا عسكريا واصبحت هرمز منذ عام ١٥٠٧ تابعة للبرتغاليين حيث وافق ملك هرمز على دفع جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين وبمقتضى المعاهدة التى عقدت مع ملك هرمز اعفيت البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية فى الوقت الذى عمد فيه البرتغاليون الى تطبيق سياستهم الاحتكارية حيث اصدروا اوامر بمنع اية سفينة من ممارسة الملاحة فى الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية وبذلك العمل كتب البرتغاليون السطر الاول فى سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربى (٢٥) .

وعلى عكس ما كان متوقعا من ان تتجه القوى المحلية للتضامن فيما بينها لمواجهة البرتغاليين نجد ان تلك القوى اخذت تعانى قدرا كبيرا من التفكك اذ انصرف ملوك هرمز الى سحق نفوذ الجبور فى البحرين حيث قامت هرمز فى عام ١٥١١ بارسال حملة عسكرية الى البحرين نجحت فى السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بنى جبر الذين عاودوا السيطرة عليها ومن ثم فعلى اثر هيمنة البرتغاليين على هرمز كان من الطبيعى ان يساندوا ملوكها للتخلص من نفوذ بنى جبر .

ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من ان الشاه اسماعيل الصفوى قد احتج على العدوان البرتغالى على هرمز الا انه لم يقم بدور ايجابى ضد البرتغاليين اذ كان منشغلا فى صراعه العسكرى ضد العثمانيين وكانت هزيمته فى جالديران ١٥١٤ سببا فى مهادنته للبرتغاليين على امل الاستعانة بهم ضد العثمانيين ويذكر لوريمر بصدد ذلك انه فى عام ١٥١٥ وصل الى هرمز سفير الشاه اسماعيل الصفوى يحمل عدة مطالب اجيب إلى بعضها واقترح ضمن اقتراحات كثيرة ان تقدم البرتغال بعض سفنها لايران كى تمكنها من غزو البحرين والقطيف وان يساعد البرتغاليون الشاه فى قمع تمرد قام ضده فى مكران وان يتنازل الشاه للبرتغاليين عن جوادور الواقعة على ساحل بلوخستان وان يقوم تحالف ضد تركيا بين ايران والبرتغال (٢٦) .

السلطان مقرن هو أول حاكم
في شرق العالم الإسلامي
يلقى حتفه في معركة ضد المستعمرين

ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان البرتغاليين قد استغلوا الصراع الصفوى العثمانى لكى ينفذوا الى صداقة الصفويين ولا شك ان نجاح البرتغاليين فى تثبيت نفوذهم فى هرمز قد أكد للصفويين ان البرتغاليين قد اصبحوا يشكلون قوة بحرية فى الخليج لا قبل لهم بالتصدى لها ومن ثم اخذوا يعملون على كسب صداقتهم لمساندتهم ضد العثمانيين .

لم يقتصر التسلط العسكري البرتغالى على هرمز والمقاطعات الساحلية من عمان وانما عمد البرتغاليون للسيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وغيرها من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لملكة هرمز وباسم ملك هرمز خاض البرتغاليون صراعا عنيفا ضد بنى جبر الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق . وفى عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالى - هرمزى مشترك اثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل من بنى جبر حيث كان قد سافر الى مكة لتأدية فريضة الحج ورغم البسالة التى تميز بها السلطان مقرن بن زامل الا انه لم يلبث بعد عودته ان وقع اسيرا فى ايدى البرتغاليين الذين بادروا باعدامه وكان بذلك اول حاكم فى شرق العالم الاسلامى يلقى حتفه فى معركة ضد المستعمرين البرتغاليين .

وقد روى تلك الاحداث المؤرخ المصرى ابن إياس [٢٧] كما وردت ايضا فى المصادر البرتغالية المعاصرة على انه مما يستلفت الانتباه اختلاف تلك الروايات فيما بينها فبينما تؤكد المصادر البرتغالية ان السلطان مقرن بن زامل مات متأثرا بجراحه تشير رواية ابن اياس انه وقع حيا فى ايدى البرتغاليين وانه عرض عليهم اموالا كثيرة ليطلقوا سراحه الا انهم رفضوا

ذلك وقتلوه ومع ذلك فان صحت رواية ابن اياس فمن المحتمل ان يكون قد دارت بينه وبين البرتغاليين مفاوضات ابدى فيها استعداده بان يدفع لملك هرمز ما فى ذمته من ديون الا ان اشتداد المعارك لم يؤد الى تنفيذ ذلك العرض وانما انتهى الامر بنجاح البرتغاليين فى السيطرة على البحرين باسم ملوك هرمز وان لم يتمكنوا من التقدم الى الاحساء والقطيف بسبب عنف مقاومة الجبور (٢٨) .

ومما يسترعى الانتباه أنه لم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين للبرتغاليين حدثا عابرا وانما احدث صدى كبيرا ورنة حزن واسى فى انحاء الخليج بل ان ابن اياس رغم اتهامه للسلطان مقرن بالتخاذل امام البرتغاليين الا انه لم يتردد فى التعبير عن حزنه والتعليق على استشهاده بانه كان من اشد الحوادث فى الاسلام واعظمها حيث اورد فى حوادث عام ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) ما نصه « واشيع قتل الامير مقرن امير عرب بنى جبر متملك جزيرة البحرين الى بلاد هرمز الاعلى وكان اميرا جليل القدر معظما مبجلا فى سعة من المال وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق وكان قد اتى الى مكة وحج فى العام الماضى . فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه فانكسر الامير مقرن وقبضوا عليه باليد واسروه فسألهم ان يشترى نفسه فيهم بالف الف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين ايديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التى هناك واستولوا على اموال الامير مقرن وبلاده وكان ذلك من اشد الحوادث فى الاسلام واعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى والامر لله تعالى (٢٩) .

لم يستمر التحالف قائما بين البرتغاليين ومملكة هرمز اذ سرعان ما تبين لتورانشاه ملك هرمز سطوة البرتغاليين واستعلائهم وانهم لم يهدفوا بتحالفهم مع هرمز الا التمهيد لفرض سيطرتهم العسكرية والاقتصادية ومن ثم اخذ تورانشاه يترقب فرصة تسنح له وللولاة التابعين له سواء من كان منهم فى عمان او البحرين او الاحساء والقطيف او غيرها من مقاطعات الخليج للتحرر من السيطرة البرتغالية وحين وصلت الانباء بان البرتغاليين يواجهون صعابا فى الهند واصبحوا مضطرين لسحب جزء من قواتهم العسكرية فى الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك بادر تورانشاه باصدار اوامره لاعلان الثورة ضد البرتغاليين (٣٠ نوفمبر ١٥٢١) ومن الامور التى تثير الاهتمام ان يتوصل عرب الخليج الى خطة محكمة لتوقيت الصراع ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة حيث تعرضت الحاميات البرتغالية فى هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار وغيرها الى هجمات ليلية مفاجئة من

البر والبحر وقتل خلال تلك الاحداث عدد كبير من البرتغاليين [٣٠] ومع ذلك فان تلك الحركة فشلت فى تحقيق اهدافها بسبب استمرار الخلافات بين شيوخ الجبور وملوك هرمز . ومما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك ان كثيرا من الكتاب الايرانيين يركزون على الموقف المتخاذل الذى وقفه فرع الجبور فى عمان مما كان سببا فى فشل الثورة وفى تقديرنا ان الموقف السلبى الذى اتخذه بنو جبر فى عمان يرجع اساسا الى ان طبيعتهم القبلية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذى سبق له ان تعاون مع البرتغاليين مما كان سببا فى قتل زعيمهم الكبير مقرن بن زامل ولعل ما يؤكد لنا ذلك تمكنهم من قتل الملك تورانشاه الذى كان قد التجأ الى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث ارسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بنى جبر فى عمان بعض اتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر فى تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود تورانشاه وان كان ذلك على حساب القضية العامة [٣١] .

وكان من الطبيعى ان يؤدى فشل الحركة الى قيام البرتغاليين بوضع نهاية للحكم الوطنى فى هرمز وذلك بمقتضى معاهدة ميناب التى ابرمت مع محمود شاه الذى خلف تورانشاه فى الحكم وقد اكدت تلك المعاهدة السيطرة البرتغالية على هرمز وتوابعها واستمر خضوع هرمز للبرتغاليين حتى عام ١٦٢٢ حين سقطت فى قبضة الانجليز والفرس وخلال تلك الفترة من السيطرة البرتغالية التى امتدت لما يقرب من مائة عام ١٥٢٣ ـ ١٦٢٢ جرت محاولات من قبل القوى المحلية للتخلص من السيطرة البرتغالية ففى عام ١٥٢٦ قام العمانيون بمهاجمة الحامية البرتغالية فى كل من مسقط وقلهات وفى عام ١٥٢٩ اعاد البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين [٣٢] كما حاولت الدولة العثمانية بين عامى ١٥٥٠ و١٥٨٠ التصدى للنفوذ البرتغالى فى الخليج [٣٣] وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع فى الخليج العربى انفسح المجال امام قوة عربية ناشئة هى قوة اليعاربة فى عمان لكى تنهض بالتعاون مع القبائل العربية فى الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالى وهو الدور الكبير الذى قدر لعرب الخليج ان يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين فى ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التى كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية مما جعلهم يقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها فى بحار الشرق [٣٤] وما كاد النفوذ البرتغالى ينهار فى الخليج العربى منذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر حتى انفسح المجال للقوى العربية لتعيد تنظيم نفسها فى شكل تنظيمات سياسية جديدة

الهوامش

١ ـ عن الازدهار العربى الملاحى والتجارى فى المحيط الهندى انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادى ابو ريدة وكذلك فضلو حورانى : الملاحة العربية فى المحيط الهندى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

ويحدد جون كيلى العصر الذهبى للملاحة والتجارة فى الخليج العربى على الفترة الممتدة من نشوء الخلافة العباسية فى بغداد فى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٥٠ م) حتى وصول البرتغاليين الى مياه الخليج العربى فى عام ١٥٠٧
CF. john Kelly : Britain and The Persian Gulf 1795 — 1880 PP — 6 — 8 London 1968 .

٢ ـ Durate Barbosa : A Description Of The Coasts Of East Africa and Malabar in The begining Of The Sixteen Century Trans . by .H. Stanley PP. 75 – 76 Hakluyt society London 1866 .

وانظر ايضا ما ذكره ابن اياس عن معركة ديو فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ج ٤ ص ١٨٢ القاهرة ١٩٦٠ .

٣ ـ عبدالعزيز الشناوى : المراحل الاولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية ـ من اعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية المجلد الثانى ص ص ٦٣٥ ـ ٦٣٩ الدوحة ١٩٧٦ .

٤ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ص ص ٤٨٥ / ٤٨٦ ـ القاهرة ١٩٨٥ .

٥ ـ Arnold Wilson : The Persian Gulf An Historical Sketch From The Earliest Times To The begining Of The 20 th Century P. 185. London 1954

٦ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوروبى الاول ١٥٠٧ / ١٨٤٠ ص ص ٥٣ ـ ٥٤ القاهرة ١٩٨٥ .

٧ ـ راجع بصدد ذلك دراسة جان أوبان عن امراء هرمز من القرن الثالث عشر الميلادى حتى القرن الخامس عشر التى تعتبر من اوفى الدراسات التى كتبت عن مملكة هرمز .

CF. Jean Aubin : Les Prince d'Ormuz du XIII" au XVC Siecles P. 7 et 120 FF. Journal Asiatique CDXLI 1973

٨ ـ . Chales Low, History Of The Endian Navy Vol 1 P. 43 London 1877

٩ ـ ابو عبدالله محمد بن بطوطه : تحفة النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الامصار ح ١ القاهرة ١٩٣٣ .

١٠ ـ عبدالسلام عبدالعزيز فهمى :

مملكة هرمز : المجد فى نشأتها وازدهارها والعبرة فى سقوطها واستسلامها ـ مجلة العربى الكويت العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤ .

١١ ـ CF. The Travels Of Pedro Teixiera With His Kings Of Hormuz Translated by William F. Sinclair Hakluyt Society London 1902 See Ralation Of The Chronicle Of The Kings Of Ormuz PP. 265 — 266 —

١٢ ـ لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة فى عالم الادب حين اشاد بها الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الانجليزى جون ملتون Melton فى ديوان الفردوس المفقود The Lost Paradise حيث اورد بيتا من الشعر جاء فيه :

If all The World Were Mere a ring
Ormuz The Diamond should bring

انظر : دونالد هولى : عمان ونهضتها الحديثة ص ٢٦ (مترجم) نشر مؤسسة سنابس الدولة .

١٣ـ عن خضوع هرمز للسيطرة البرتغالية انظر :

The book Of Durate Barbosa by mansil Dames VoL I PP 101 — 103 CF An Account Of The Countries bordering on The Indian Ocean and their inhabitants Written by Durate Barbosa and Completed about The year 1518

١٤ ـ مصطفى عقيل : التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣ ص ٢٠ بيروت ١٩٨١ .

١٥ ـ على عبدالرحمن ابا حسين : من تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق انظر ابحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربى ص ٢٤٦ ابوظبى نوفمبر ١٩٧٩ .

١٦ ـ على عبدالرحمن ابا حسين : دراسة سبق ذكرها ص ٢٤٦ .

١٧ ـ عائشة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ص ص ٢٢/٢٣ بيروت ١٩٧٥ .

١٨ ـ جون كيلى : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ترجمة محمد امين عبدالله الجزء الاول ص ١٧ ـ وزارة التراث القومى والثقافة سلطنة عمان ١٩٧٩ .

١٩ ـ حميد بن محمد بن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسى عبدالله ص ص ٢٧٥/٢٦٠ وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٧٧ راجع ايضا ابو سليمان محمد بن عامر المعولى : قصص واخبار جرت فى عمان (مخطوط) ورقة رقم ٤٣ وكذلك محمد بن عبدالله السالمى : عمان تاريخ يتكلم ص ص ١٥٣/١٥٢ دمشق ١٩٦٣ .

٢٠ ـ عبداللطيف ناصر الحميدان : التاريخ السياسى لامارة الجبور فى نجد وشرق الجزيرة العربية العدد (١٦) من مجلة كلية الاداب جامعة البصرة ١٩٨٠ .

٢١ ـ F. Adamyiat : Bahrain Islands — A legal & Diplomatic Study Of British Iranian Controversy P. 14 New york 1955 .

٢٢ ـ صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ص ١٠/١١ القاهرة ٧٤ .

٢٣ ـ الزرافين عملة برتغالية وكان يعادل ثلاثمائة ريال CF. Werdell Philips Oman A History PP. 37 — 39 London 1967 .

٢٤ ـ عبدالامير محمد امين : المصالح البريطانية ١٧٤٧/١٧٧٨ (مترجم ص ٩ منشورات مركز دراسات الخليج العربى ـ بغداد ١٩٧٧ .

٢٥ ـ ارنولد ويلسن : تاريخ الخليج ترجمة محمد امين عبدالله ص ص ٦٩/ ٧٠ وزارة التراث القومى والثقافة ـ سلطنة عمان ١٩٨١ .

٢٦ ـ ج . ج لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ الجزء الاول ص ٨ ـ الدوحة ١٩٦٧ انظر ايضا صالح أوزبران البرتغاليون والاتراك العثمانيون فى الخليج العربى ـ ترجمة الدكتور عبدالجبار ناجى ـ ص ص ١٩/ ٢٠ منشورات مركز دراسات الخليج جامعة البصرة ١٩٧٩ .

٢٧ ـ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ح ٥ ص ٢٧١ .

٢٨ ـ الحميدان : دراسة سبق ذكرها مجلة كلية الاداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠ .

٢٩ ـ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى ـ المجلد الخامس ص ٤٣١ القاهرة ١٩٦٠ .

٣٠ ـ ارنولد ويلسون : الخليج العربى ص ص ٧٩/ ٨٠ انظر ايضا عباس اقبال : مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ص ص ٦٣/٦٥ ـ القاهرة ١٩٥٦ .

٣١ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الاول ١٥٠٧/١٨٤٠ ص ٧٩/ ٨٠ .

٣٢ ـ Wendell Philips, Oman A History P. 39 .

٣٣ ـ عائشة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٨ وللمزيد من التفصيل عن العمليات العثمانية فى الخليج العربى ضد البرتغاليين راجع صالح أوزبران : البرتغاليون والاتراك العثمانيون فى الخليج العربى ، من منشورات مركز دراسات الخليج العربى . جامعة البصرة ١٩٧٩ .

٣٤ ـ CF. Boyer, New Light on the Relation ship Of Oman and Portuguese, Proceedings of Omani Studies — Muscat November 1980 .